التصوف في الاسلام (١)

للدكتور احمد غلوش

دعا الدكتور مكلاهن عميد كلية العلوم الشرقية بالجامعة الاميركية صديقه الاستاذ احمد غلوش الى القاء محاضرة بالانكليزية على فريق من فضلاء الجاليتين الانكليزية والاميركية بالقاهرة ممن يهتمون بدراسة المسائل الشرقية فاجاب الاستاذ هذه الدعوة فوقف الدكتور مكلاهن وقال ان قاعة الدراسات الشرقية كانت حتى الآن تعقد فيها اجتماعات لدرس تاريخ اعلام الشرقيين ومناقبهم ولكننا في هذه الليلة سنسمع هنا لاول مرة رجلاً مصرياً مسلماً مثقفاً ثقافة اسلامية عالية وحاصلاً على درجات علمية شرفية من الجامعات الاوربية والاميركية وهو الدكتور احمد غلوش فهو سيحاضرنا الآن في موضوع اسلامي بحت يتعلق بالطرق الصوفية في الاسلام ويشرح لنا مراميها وأغراضها ونشأتها فقد آن الاوان ليتبادل سكان هذا الوادي الرأي فيما لديهم من صنوف الثقافة الروحية والعلوم والمعارف الدينية ويقدم كل فريق منهم الى الآخر احسن ما عنده من ذلك حتى يسود التفاهم بين الجميع مع احتفاظ كل منهم بآرائه الخاصة . قال ونحن معاشر الغربيين كثيراً ما سمعنا بوجود الطرق الصوفية بكثرة في هذه البلاد وسمعنا بالمشايخ والفقراء والدراويش ولكننا في الواقع لا نعرف من حقيقة امرهم شيئاً . وقد تكفل صديقنا الدكتور احمد غلوش الذي اعتنق المبادىء الصوفية ومارس رياضاتها الروحية بان يشرح لنا ما يهمنا ان نعرفه منها . ثم دعا المحاضر الى منصة الخطابة فتقدم وبدأ كلامه بشكر الجامعة الاميركية التي اتاحت لهُ هذه الفرصة للتحدث عن موضوع الصوفية في الاسلام ذلك الموضوع الذي كثيراً ما اخطأ فهمه الغربيون والمستشرقون . واسترسل في الشرح حتى وفى الموضوع حقه

(١) ترجمة المحاضرة التي القاها بالانكليزية بقاعة الدراسات الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة الدكتور احمد غلوش رئيس جمعية منه المسكرات بالقطر المصري

من البيان. وقد استغرق القاء المحاضرة ساعة كاملة ونحن ننشرها هنا ترجمتها لفائدة القراء

***

انهُ لاجل معرفة حقيقة التصوف او اي علم آخر ينبغي عقلاً ان يلجأ في ذلك الى المتصوفين انفسهم او اصحاب ذلك العلم فهم اقدر من سواهم على تجلية الموضوع تجلية صادرة عن خبرة لا يشوبها زيغ ولا تحريف واما نقل العلوم عن غير اهلها فقلما يوصل الى ادراكها على حقيقتها

ولقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من افرنجيين فألفيتها في الكثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب فمن ذلك مثلاً ما يزعمونهُ من ان الصوفية والتصوف دخيلان في الاسلام غريبان عنهُ وانهما انما جاء بهما الاعاجم من الفرس قصداً منهم الى تشويه الدين ويزعمون ايضاً ان اصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوهما ويقولون غير ذلك من المزاعم التي لا اصل لها

فالتصوف وان كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير في تدوينه وحمل لوائه فهو لا يمت الى المبادئ والمذاهب الآرية او البوذية بأدنى سبب. وشتان ما بين السلك البوذي الذي يزعم انهُ يسلك طرق خاصة من الرياضة وتعذيب النفس ينمحي عنهُ في النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذا بنفسه أي إلهاً قد انمحت عنهُ صفات البشرية وبين المسلم المتصوف الذي يعبد الله وحده طبقاً لاحكام الاسلام ومبادئ الدين الحنيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى وغايتها ان يصير بها أهلاً للفوز برضوان ربه والدخول في حضرته وتذوق طعم الايمان بالوجدان

وكثيراً ما خلط المستشرقون بين المتصوفين وبين المشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الاعاجيب ويعرفون عندهم باسم أصحاب الاسرار الخفية Mysticism وترجع أسباب هذا الخطإ الى ان المتصوفين كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الاسرار الدونية فظن أولئك المستشرقون ان أسرار الصوفي هي أمور خفية يحرص على حجبها عن أعين الناس كما هو الشأن عند اهل الشعوذة (Mystics) مع ان حقيقة معنى الاسرار عند الصوفيين انما هي الحقائق التي تنطوي عليها ظاهرات الاشياء والحكمة التي يتذوقونها من احكام والشرائع فهذه الاذواق والمواجيد لا يستطيع الصوفي ان يعبر عنها لاحد لا لانهُ يريد اخفاءها عن الناس بل لانها فوق متناول الوصف والبيان إذ هي أمور ذوقية لا تعرف الا بالذوق والوجدان. ومثلها كمثل حلاوة سكر القصب ونحوها مما لا سبيل الى إدراكه بغير التذوق

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدث وكل عالم ان يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذي أصابه فانهُ من العسير المتعذر ان يبين لعامة الناس أسرار الانوار القدسية والفيوضات

الربانية التي تفيض على قلبه ثمرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته الروحية

على انهُ مما يؤسف له جد الاسف وجود طوائف من الناس في الشرق ينسبون انفسهم الى الطرق الصوفية وما هم منها في شيء وهؤلاء قد يأتون بضروب من المهمهة والتمتمة والايحاء الذاتي ويركنون الى التنجيم والطوالع والجفر وادعاء معرفة الغيب فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة وسبباً دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف كما دعا آخرين الى القول بان التصوف ليس في شيء من الدين . بيد ان من يدرك سنة الله لا بدَّ ان يعرف انهُ كثيراً ما يوجد الى جانب النباتات النافعة والاعشاب الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا مندوحة من استئصالها حتى لا تعدو على النبات الطيب فتفسد عليه أمره

ولئن كان كل متصوّف لا بدَّ ان يستمد قواعد سلوكه الروحي من مبادىء الاسلام وتعاليمه الصحيحة فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفي والمسلم العادي ذلك بأن ايمان الاول إيمان تحقيقي ذوقي في حين ان إيمان الثاني إيمان يغلب ان يكون تقليديًّا وراثيًّا انحدر اليه من الآباء او جاءه من طريق التلقين او التعليم او أصابه بحكم الوسط والبيئة التي يعيش فيها دون ان يعرف السر في ضرورة اعتناقه لهذه او تلك من المعتقدات الدينية التي لا بدَّ منها لنجاته في الآخرة . وقد يظل انقلب نحاذره الشكوك والريب في كثير من هذه المعتقدات ويظل العقل يطالب صاحبه بوضع حدٍّ لها والتخلص منها . ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير يجاوز الطريق المؤدي الى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان الى صحة السير على ان يكون هذا المرشد او الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادراً على هداية غيره اليها كراكب البحر يريد الوصول الى بلد ناءٍ بعيد فلا مندوحة له من الاسترشاد بربان ماهر يقدر على ان يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد في أمن وسلام . ومن ثمَّ نشأت طائفة مشايخ الطرق والسالكين فيها لارشاد المريدين الى الطريق حتى لا يضلوا السبيل . وكما ان أطباء الاجسام لا بدَّ من الاستعانة بخبرتهم على شفاء العلل والاسقام فكذلك كان لا بد لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من امراض القلوب

ولا بد لمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من ادران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلاً عن البعد كل البعد عن الوقوع في الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم وذلك لا يتم له الا بارشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التي يهتدي بها قلبه ويطمئن خاطره ويسكن باله اذ يشعر شعوراً باطنيًّا انهُ قريب من حضرة مولاه

ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالاهية والاسرار القدسية الا بتصفية القلب

من الحظوظ الدنيوية حتى تتجلى بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الانوار الروحية والفتوحات الربانية

وعند المتصوفين ان الانسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً ولا صدفة وانما خلق لغاية سامية وان جسمه وان كان خسيساً ارضيًّا فان روحه شريفة علوية وان جسمه وان كان سيفنى بموته فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الابد فاذا ما تطهر المرء في بوتقة الزهد والتقوى من ادران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية فانه ليبلغ بذلك اسمى مراتب الرقي الباطني ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الا في عبادة الله والتسبيح بحمده فاذا اعطاه شكر واذا ابتلاه صبر ويصير ولا همَّ له في الدنيا الا طاعة مولاه حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه لا ينفك عنها بأي حال من الاحوال فلا يلبث المريد ان يرى في كل ما امر الدين به حكمة خفية سامية ويرى مثل ذلك في كل ما نهى عنهُ الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى في القرآن الحكيم « واتقوا الله ويعلمكم الله »

وقد تطور التصوف في الاسلام على مدى الاجيال حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان

وقد بدىء بتدوين هذا العلم وتهذبت حواشيه وانظمت مبادئه ورتبت آدابه حوالي النصف الثاني للهجرة النبوية أي نحو عام ٧٦٠ للميلاد . ومع ان ابحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها في ستة موضوعات او مباحث عامة وهي معرفة الانسان نفسه ومعرفة الله تعالى ومعرفة حقيقة الدنيا ومعرفة احوال الآخرة ومراقبة النفس وايثار حب الله على كل ما سواه

ولما كانت هذه الفرصة لا تتسع امامي لشرح هذه المباحث كلها او بعضها فحسبي ان اتحدث عن التصوف اقلية حديثاً مجملاً يجمع بعض ما تفرق من اطرافه الى ان تهيأ الفرصة لشرح مباحثه تفصيلاً . ولنبدأ بكلمة التصوف ومن اين جاءت فأقول : ان هذه الكلمة دخيلة على اللغة اعني انها ليست عربية الاصل ولم اقف في كتب الصوفية المعتمدة على رأي قاطع في اصل اشتقاقها. ففي المتفرقات للامام الجنيد وقوت القلوب لابي طالب المكي وعوارف المعارف للامام السهروردي والمنقذ من الضلال للامام ابي حامد الغزالي — وهذه امهات كتب الصوفية — نجد ان هؤلاء الائمة جميعاً كانوا في شك من حقيقة تلك الكلمة وقد ذهبوا في امرها مذاهب شتى دون ان يقطعوا بصحة ما ذهبوا اليه . وعندهم انها قد تكون مشتقة من الصفاء لان المتصوفين يبدأون بتصفية بواطنهم من الاهواء والشهوات . واما من التصفية لان الله تعالى تولى تصفية قلوبهم من حظوظ

الدنيا . واما من الصوف لانه كان الغالب في لباسهم كتشفهم وزهدهم في الناعم من الثياب وأما من الصفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) وأصحاب الصفة قوم من اصحاب رسول الله زهدوا في نعيم الدنيا وآثروا الله ورسوله والدار الآخرة وفيهم نزل قرآن في مديحهم واظهار فضلهم . وليس في عدم قطع ائمة الصوفية في امر نسبة طريقتهم ما يطعن في جلال قدرهم فانهم قوم عمليون يعبأون بالاعمال دون الاقوال ويهتمون بتحقيق المسميات دون التعويل على اصل الاسماء

وقد خطر لي بعد طول التفكير ان من الراجح ان تكون كلة التصوف مشتقة من كلة تيوصوفية اليونانية التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحي يعتنقهُ النساك والزهاد السالفون قبل الاسلام بعدة قرون فكانوا ينأون بجانبهم عن الدنيا ويلجأون الى انواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه من انبيائهم ورسلهم حبًّا في التقرب بالروح من خالقهم وتلقي الحكمة والمعارف القدسية منه تعالى . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في دائرة المعارف البريطانية من ان التيوصوفيين كانوا معروفين من ازمان بعيدة وكانوا يزهدون في الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم وان هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيباً مزجيًّا وهما لفظ تيو (Theo) ومعناه الله و(Sofia) صوفيا ومعناه الحكمة . اي ان اولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأساً فهناك تشابه كثير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية

ولكن ما هو التصوف ؟

ومهما يكن من خلاف في امر اشتقاق كلة التصوف فانهُ لا خلاف البتة بين ائمة الصوفية في حقيقة معنى التصوف فقد اجمعوا على انه الطريق الوحيد السلطاني الذي يؤدي الى اكتساب المعارف الالاهية والفتوحات الربانية والاذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والابهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التي لا بد من الايمان بها . ومنها مثلاً عقيدة القضاء والقدر التي تدل على ان الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء مع اعتقاد ان المهتدين يؤجرون بدخول الجنة وان العصاة يدخلون النار فان العقل قد يظل حائراً في سبيل التوفيق بين الامرين . وهناك مسألة الايمان بالبعث والنشور بعد الموت والفناء وهناك الاعتقاد بخلق الملائكة والجان والشياطين وهذه مخلوقات لا مثال لها من المنظورات والمحسوسات . ثم مسألة خلق البشر من طين وتراب وخلق الطين والتراب من لا شيء . وهناك مسألة النبوة والرسالة وان الله تعالى يكلم المصطفين الاخيار من عباده وينزل عليهم الوحي من سمائه . فما هذا الوحي وكيف يكون . وما هي تلك النبوة وكيف تكون وهناك مسألة المسائل وهي

الاعتقاد بوجود الله تعالى وجوداً ازليًّا وأبديًّا قبل ان يوجد الزمان والمكان فالعقل الراجح والمنطق الصحيح اواضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والايمان به في غير ما تردد ولكن الايمان بالشيء تتفاوت درجاته فقد ينقص الى حد ان يكون ظنًّا او اقل من الظن تبعاً للمعاصي التي يرتكبها الانسان قلة وكثرة وقد يتزايد الى حد ان يكون عياناً ومشاهدة وهذا تبعاً لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والاقبال على عبادته ضعفاً وقوة. وقد دلت سير المتصوفين الاولين السابقين ممن وصلوا الى الله تعالى وصول مشاهدة ومعاينة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على ان هذه الطريقة هي الكفيلة حقًّا بالقضاء على كل غموض وابهام في امور الدين وعقائد الايمان كما قال سيد المتصوفين علي ابن ابي طالب لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً وان هي الا رياضة روحية مباركة ورحلة في طريق السعودية موفقة حتى يشلج امام قلب السائر فيها نور اليقين فعين اليقين حق اليقين حيث تنهزم من امام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويمتلىء الباطن عرفاناً وايماناً بكل ما نطق به الرسل الكرام وجاءوا به من عند الله

وعند الصوفية ان دين الله تعالى واحد في جميع العصور والاجيال ولم يكن في اي زمن سبق سوى الاسلام واعني به التسليم المطلق والخضوع التام لاوامر الله تعالى وما جاء به المرسلون من الشرائع والاحكام وان اختلاف الاديان لم يتناول العقائد قط وانما يتناول اعمال العبادات وكيفياتها وطقوسها تبعاً لحاجة العصر وتعاقب الازمان فالاديان جميعها من حيث اصولها لا تباين بينها ولا خلاف. واساس ذلك الاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل ما يتصور من صفات الكمال وتنزهه عن كل نقص يخطر على البال والاعتقاد بملائكته وبكتبه المنزلة وبرسله المرسلة وباليوم الآخر وهو يوم الحساب وبالقضاء خيره وشره من الله. وليست العبادات في جميع الاديان مطلوبة لذاتها من صلاة وزكاة وصوم وحج وقربة وانما هي وسائل لا بدَّ منها للتدين كيما يصل بها الى تطهير نفسه من أدران الشهوات تطهيراً ترقى به الروح الى القرب من الله ودخول الجنة فهي تشبه بالعلاج الذي يتداوى به الجسم من الامراض. وكما ان تعاطي المريض لما يصفهُ له طبيب الاجسام من علاج يهمهُ وحده دون الطبيب الذي يعالجهُ اذ المريض هو الذي سينال به الشفاء دون الطبيب فان الله تعالى غني بذاته عن عبادة عباده فهم الذين سيجنون وحدهم فائدة هذه العبادة

ولما كانت النفوس البشرية بحكم تكوينها وخلقتها الحيوانية بحاجة الى تطهيرها ومداواتها من آثار العلل الشهوانية حتى تصفو وترتقي وتصير أهلاً للعودة الى ربها وخالقها راضية مرضية فان المتصوفين هم اشد عباد الله تمسكاً باحكامه واوامره المقررة في الشريعة كما اتى بها الرسول من عند الله فمن قال ان الصوفيين اهل تفريط في التمسك باهداب الشرائع الالهية فقد ظلمهم

وافترى عليهم فما جاء في كتب المستشرقين من الاوربيين عن تهاون ارباب الطرق الصوفية برسوم الشريعة مخالف للواقع بعيد عن الصواب

والحق ان المتصوف لا يكتفي مثل سائر المسلمين بالقيام بظاهر العبادات المسنونة في الدين بل ينظر بنور البصيرة الى ما تنطوي عليه الرسوم والاحكام من حكمة واسرار فيغوص لالتقاطها واستخراج هذه الاسرار من بواطنها ومكامنها كما يغوص السباح الماهر لالتقاط الاصداف من قبعان البحار لا رغبة في الاصداف ذاتها بل ليستخرج منها الجواهر واللؤلؤ الثالي فالصلاة مثلاً عبادة مطلوبة لانها تنهي عن الفحشاء والمنكر وفيها ذكر الله وذكر الله أجل شأناً وأكبر وهي لا تحقق هذا الغرض اذا كان المصلي لا يؤديها وهو حاضر القلب لا يفكر في اثنائها الا في اداثها على الوجه الاكمل. فالمتصوف يحرص كل الحرص على الفوز باسرار الصلاة على هذا الوجه فلا يصلي وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه في خلالها نحو السوق ومصالح الدنيا من مال أو ولد. وكذلك الشأن في سائر العبادات المفروضة فان الصوفي يعرف ما تنطوي عليها من حكمة واسرار فيحرص على بلوغها ويحذر من كل ملابسة تؤدي الى ضياعها. ولم يشفق المتصوفون على عوام المسلمين حين يصلون وهم عن صلاتهم ساهون فلا يفيدهم قيامهم بها على هذا الوجه أجراً فضلاً عن تطهيرهم من الفحشاء والمنكر وهذا الذهول من المسلمين عن اسرار العبادات وعدم الحرص عليها وقلة الحذر من تفويت حكمتها عليهم كان السبب الاكبر في نظر المتصوفين لما أصاب المستوى الروحي في العهود المتأخرة للاسلام من الضعف والانحطاط

التصوف من الناحية التاريخية

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة الى التصوف في صدر الاسلام وعدم ظهور هذه الدعوة الا بعد عهد الصحابة والتابعين. والجواب عن هذا انه لم تكن من حاجة اليها في العصر الاول لان اهل ذلك العصر كانوا اهل ورع وتقوى وأرباب مجاهدة واقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله فلم يكن ثمة ما يدعو الى تلقينهم علماً يرشدهم الى امرهم قائمون به فعلاً وانما مثلهم في ذلك كمثل العربي الفح يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون ان يعرف شيئاً من قواعد اللغة والاعراب والنظم والعروض فمثل هذا لا يلزمه ان يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تبلبل الالسن او لمن يريد من الاجانب ان يتفهمها لينتفع بها او عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي

العصور في أوقاتها المناسبة. فالصحابة والتابعون وان لم يتسموا باسم المتصوفين فانهم كانوا صوفيين عملاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً. وماذا يراد بالتصوف اكثر من ان يعيش المرء لربه لا لنفسه والتحلي بالزهد وملازمة اسباب العبودية والاقبال على الله بالروح والقلب في جميع الاوقات مما وصل به الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي الى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالاقرار بعقائد الايمان والقيام بفروض الاسلام بل قرنوا الاقرار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الاتيان بكل ما استحبهُ الرسول من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرَّمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة في قلوبهم وفاضت الاسرار الربانية من جوانحهم. وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الاسلام وخيرها على الاطلاق. وقد جاء عن رسول الله وخاتم الانبياء قوله خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه

فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الاسلام أمم شتى واجناس عديدة واتسعت دائرة الارشاد والتبيين في مختلف ميادين المعرفة والعلوم فمن ثمَّ وجب تقسيم العمل وتوزيعه بين ارباب الاختصاص فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الاول علم الفقه وعلم التوحيد وعلوم الحديث وأصول الدين والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الاصول والفرائض (الميراث) وغيرها وغيرها . وحدث بعد هذه الفترة ان أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتناسون ضرورة الاقبال على الله بالعبودية بالقلب والهمة مما دعا أرباب الرياضة والزهد الى ان يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف واثبات شرفه وجلالته وفضله على سائر العلوم ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الاخرى الى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأً بعض المستشرقين بل كان كما يجب ان يكون سدّاً للنقص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لا بد منهُ لحصول التعاون على تمهيد اسباب البر والتقوى

وقد بنى أئمة الصوفية الاولون اصول طريقتهم على ما ثبت في تاريخ الاسلام نقلاً عن الثقات الاعلام انهُ حدث في العام الاول للهجرة ان اجتمع بضعة عشر رجلاً من المهاجرين ومثل ذلك من الانصار من اهل المدينة وتعاهدوا بينهم ان يزهدوا في الدنيا وليسها الزائل ويقبلوا على الله والدار الآخرة ويشغلوا جميع اوقاتهم ولا سيما في اوقات السحر والفسق بصنوف العبادات حبًّا بالله واقتداء برسوله فكان هذا التعاهد بمنزلة عهد قطعوه على انفسهم لله لا مناص لهم من الوفاء به والاَّ كانوا آثمين وذلك ما يسمى بالعهد بين اهل الطريق الى الآن . وكان أساس زهدهم في الدنيا قول النبي صلى الله عليه وسلم « الفقر فخري » ومن هنا جاءت التسمية

التي أطلقوها على أنفسهم ومن دخل في طريقهم وسلك سبيلهم وهي (الفقراء) فالواحد منهم كان ولا يزال يسمى بالفقير ومعنى الفقير عندهم ليس من هو بحاجة الى معونة الغير بل معناها الفقير الى رحمة الله المستغني به عن الخلق جميعاً

كذلك ثبت عندهم ان النبي لقن أصحابه ذكر لا اله الا الله جماعة وفرادى فأما تلقينه لاصحابه جماعة فقد رواه شداد بن أوس في حديث صحيح قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام هل فيكم غريب ؟ يعني من أهل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا اله الا الله فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا لا اله الا الله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أبشروا فان الله قد غفر لكم . وأما تلقينه صلى الله عليه وسلم لاصحابه فرادى فقد قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله دلني على أقرب الطرق الى الله عز وجل وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله فقال يا علي عليك بمداومة ذكر الله عز وجل سراً وجهراً فقال علي كل الناس ذاكرون يا رسول الله وانما اريد ان يخصني بشيء فقال رسول الله مه يا علي ان افضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا اله الا الله الى آخر الحديث الشريف . فهذا اصل سند القوم في تلقين الذكر الى اليوم وهم يرون من فوائده ارتباط القلوب بعضها ببعض الى رسول الله وان اقل ما يحصل للمريد الصادق اذا دخل في سلسلتهم بهذا التلقين ان يكون اذا حرك به حلقة لسانه جاوبته أرواح الاولياء من شيخه الى رسول الله فمن لم يدخل في طريقهم بالتلقين فهو غير ممدود منهم وقلما يفتح عليه بما فتح به عليهم

ويروى ان أبا بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين كان يتولى قيادة فريق من أولئك الفقراء كما ان عليا بن أبي طالب بن عم النبي ورابع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر . وبعد وفاة أبي بكر أخلفه في طريقته سلمان الفارسي أحد كبار الصحابة من أهل فارس وبعد وفاة علي تولى خلافة طريقته الحسن البصري وكان كل منهما يسمى بالخليفة ولهذا صار يطلق اسم الخليفة الى يومنا هذا على كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية

***

ويتمسك المتصوفون في اقيالهم على الله بالهمة وصدق النبوءة ، بما جاء في القرآن وهو قوله تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »

ولهذا اوجب الفقراء اي المتصوفون على انفسهم ان يكونوا في جميع الحالات على قدم الاستعداد للتضحية بهذه المصالح الدنيوية كلها في سبيل قيامهم بحق العبودية لله وحده فلا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا اي متاع آخر عن ذكر الله وعبادته رامين نصب اعينهم الغرض الاسمى من خلقهم ووجودهم في هذه الحياة الدنيا وهو ما جاء في قول الله تعالى في القرآن وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون

وقد دلّ تاريخ هؤلاء القوم على ان عمدتهم في التقرب الى الله فوق قيامهم بالفروض عليهم في الاسلام التزامهم اذكاراً واوراداً كل صباح ومساء وأهم هذه الاذكار ذكر لا اله الا الله ثم الصلاة على النبي ومعناها استنزال البركات الدينوية الربانية على روحه صلى الله عليه وسلم

وعندهم كما ثبت بالتجارب والممارسة ان لذكر الله باللسان مع حضور القلب وبالكيفية المخصوصة المتفق عليها لدى شيوخهم وطوائفهم اثراً كبيراً بحز القلم عن وصفه في تصفية الباطن وتنوير القلب بالانوار والفتوحات الربانية كما ثبت مثل ذلك للصلاة على النبي. والمسلمون مأمورون في القرآن بهذه الصلاة وهي فرض عين على كل مسلم صوفيًّا كان او غير صوفي وانما المتصوفون يكثرون منها جهد الطاقة لما لها من الاثر العظيم في جلاء مرآة القلب وصفاء الروح صفاء عجيباً مظهره الاكبر تملك حب الله ورسوله من صميم نفوسهم

وأما تسميتهم بالمتصوفين فلم تحدث او بالاحرى لم يرد لها ذكر في كتب التصوف المعتمدة الا بعد عصر الخليفة المأمون سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨ هجرية او ٨١٣ — ٨٣٣ ميلادية) وقد كان ذلك العصر ازهر عصور الادب العربي وفيه توفر العرب على نقل العلوم والفلسفة الاجنبية . والظاهر انهم التقوا فيها بكلمة تيوصوفية اليونانية فعربوها وتحنوا منها اسماً معرّباً اطلقوه على جماعة الفقراء فكان هذا الاسم هو التصوف لان كلمة الفقراء لم تكن وافية في ذاتها في الابانة عن المعنى الذي يتميز به المتصوفون عن غيرهم من المسلمين وقد المعنا الى بيان ذلك من قبل

وأما كلمة الصوفية وكلمة الصوفي فهما كذلك منحوتتان من نفس كلمة تيوصوفية المتقدم ذكرها وقد اطلقت الاولى اي الصوفية على العلم نفسه والصوفي على من تحقق بهذا العلم وتلبس به. واما كلمة المتصوف والتصوف فقد استعملت الاولى منهما للدلالة على السالك في هذا الطريق الآخذ في اسباب التحقق به واستعملت الثانية (التصوف) على سلوك الطريق

وقد كان تأسيس اول طريقة نظامية من الطرق الصوفية الطريقة السهروردية مؤسسها الشيخ علوان في سنة ١٤٩ هجرية (٧٦٦ ميلادية) وبعد ذلك توالى انشاء الطرق الاخرى بتوالي القرون وكانت كل واحدة منها تسمى باسم شيخها ومؤسسها . وقد يتعذر اليوم تعداد الطرق الموجودة الآن كلها لكثرتها. فنجتزىء الآن بذكر اشهرها وهي : —

	اسم الطريقة	مؤسسها	تاريخ تأسيسها
١	العلوانية	الشيخ علوان المدفون بمجده	١٤٩ هـ — ٧٦٦ م
٢	الادهمية	الزاهد ابرهيم بن ادهم « بدمشق	١٦١ « — ٧٧٧ م
٣	البسطامية	الامام ابو يزيد البسطامي « جبل بسطام	٢١١ « — ٨٧٤ م
٤	السقاطية	الامام سري الدين السقطي المدفون ببغداد	٢٩٥ « — ٩٠٧ م
٥	الجيلانية	سيدي عبد القادر الجيلاني «	٥٦١ « — ١١٦٥ م
٦	الرفاعية	سيدي السيد احمد الرفاعي «	٥٧٦ « — ١١٨٢ م
٧	السهروردية	الامام شهاب الدين السهروردي «	٦٠٢ « — ١٢٠٥ م
٨	الشاذلية	سيدي ابو الحسن الشاذلي الصغير بالبحر الاحمر	٦٥٦ « — ١٢٥٨ م
٩	المولوية	سيدي جلال الدين الرومي قونيه	٦٧٢ « — ١٢٧٣ م
١٠	الاحمدية	سيدي احمد البدوي طنطا	٦٧٥ « — ١٢٧٦ م
١١	النقشبندية	سيدي بير محمد نقشبند قصر عرفان	٧١٩ « — ١٣١٩ م
١٢	السعدية	الامام سعد الدين دمشق	٧٣٦ « — ١٣٣٥ م
١٣	البخاشية	سيدي الحاج بخاش كيرشر بالبانيا	٧٥٦ « — ١٣٥٧ م
١٤	الحلوتية	سيدي عمر الحلوتي قيصرية	٨٠٠ « — ١٣٩٥ م
١٥	البرهامية	سيدي الحاج برهام انقره	٨٧٦ « — ١٤٧١ م
١٦	البكرية	سيدي ابو بكر الوفائي حلب	٩٠٢ « — ١٤٩٦ م
١٧	الجلشانية	سيدي ابرهيم الجلشاني القاهرة	٩٤٠ « — ١٥٣٣ م
١٨	الجالية	سيدي جمال الدين اسطامبول	١١٦٤ « — ١٥٧٠ م

فهذه الطرق الصوفية المشهورة وكثير غيرها مما لم نذكره ليس من خلاف بينها من حيث الاسس والمبادىء الاصلية وانما الفرق في نوع الاذكار والاوراد التي يواظب عليها المريدون من اتباع كل طريقة منها فقد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الالهام ويؤتى حظاً كبيراً من الانوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من اسماء الله الحسنى فيكون ذلك سبباً او اساساً لانشاء طريقة جديدة مشتقة في الواقع من طريقته الاصلية ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور والازمان

وليس في الامكان ان نأتي على تبيان مختلف الاذكار والاوراد وصنوف الرياضات ومدارك السلوك لدى ارباب الطرق المتنوعة وحسبي ان اصف لحضراتكم بالايجاز المراحل التي يتطها اتباع الطريقة الحلوتية وقد قطعتها بنفسي بتوفيق الله وبارشاد شيخي العارف بالله سيدي عبد الله بن محمد

البناء المدفون في الاسكندرية قدس الله سره وهذا الوصف ينطبق في مجموعه على حال الطرق الاخرى — فأقول:

طريق التصوف في سلوك الى الله

يبدأ سلوك هذا الطريق باستشعار رغبة ملحة تستولي على القلب فتبعث بها في باطن المرء داعية قوية نحو تذوق الايمان بالوجدان وعدم الوقوف عند حد التصديق او اليقين الذي حصل عليه بالتوارث او بالاستدلالات النظرية والعقلية فما أبعد الفرق بين من يعتقد بين اهل مصر بوجود لندن في انكلترا وهو لم يشاهدها في حياته وانما آمن بها لتوفر الادلة العقلية على وجودها وبين من رآها رأي العين وعاش فيها زمناً . وتأخذ هذه الرغبة تزداد في القلب تمكناً بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس الى الرقي الروحي فيسلكها الحنين والشوق الى معرفة خالقها معرفة ذوقية لا عقلية ولا عقلية ويغلب ان تساور الانسان في هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون ان يجد من عقله مرشداً كافياً لحل معضلاتها والخروج من ظلمات الحيرة المترتبة على تلك الظنون والشكوك فيلجأ عند ذلك الى احد المرشدين الى طريق الحق من مشايخ الصوفية بشرط ان يكون هذا الشيخ من المحققين العارفين بالله ممن سبق لهم سلوك هذا الطريق بنفسه وهو مأذون من شيخه بالتسليك فيه ويطلب اليه أن يدخله في عداد اتباعه الآخذين في السلوك الى الله على يديه . ففي هذه الحالة يسمى الطالب (مريداً) أي يريد السير في الطريق وهذه اولى المنازل وتسمى منزلة الارادة فيتلقاه الشيخ بالفرح والسرور ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبري من حوله وقوته واخلاص النية في مقصده وغايته القيام بما يفرضه الطريق على السائر فيه من الاذكار والاوراد المشروعة فضلاً عن القيام بما يستوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه ويوصيه بملازمة التقوى في السر والعلانية ومراقبة الله في كل حال ثم يلقنه الذكر ويعطيه الاوراد ومن ثم يبدأ سلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكاً) جاعلاً اكبر همه في الدنيا الاشتغال بالعبادة والزهد والرياضة بحسب ما يرسمه له الشيخ فيقبل على الله بصدق النية وتصفية القلب عما سوى الله حتى يتخلى بذلك الى مقام يسمى بمقام العبودية ويظل السالك يجاهد في الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليهما بالاكثار من الضراعة والتذلل والتزلف الى بارئه حتى اذا ما اقبلت عليه العناية الالهية وتقبلت مناجاته وضراعته ارتقت الرغبة في قلبه فصارت عشقاً لله وحباً لذاته العلية وحينما يصل السالك الى مقام في الطريق يسمى (مقام العشق)

ولا يزال هذا العشق يتملك قلب السالك حتى يطرد من باطنه كافة الاماني والحظوظ

والرغبات الدنيوية فيقوده هذا الحال الى مقام ارقى يعرف بمقام (الزهد) حيث تتم فيه تصفية القلب وجلاء مرآته جلاء يجعله بحيث يصير مستعدًّا لاستقبال ما تنعكس عليها من المعارف القدسية والانوار الالهية بدون واسطة العقل او المخ او اي عمل من اعمال الجسم الفسيولوجية

وهنا يواصل السالك سيره الى الله وهو دائم التفكير في معبوده الاوحد لا يهنأ له عيش ولا يطيب له وقت الاَّ اذا اقترن بذكر الله والتسبيح بحمده وعند ذلك تنبثق في قلب السالك انوار تلك المعارف اللدنية اي التي تهبط على القلب بطريق الالهام الباطني بكيفية تجل عن الوصف وبها تحصل لديه اذواق وجدانية يتفهم بها ما لم يكن يفهمه بعقله من معاني النبوة ويعرف هذا المقام عند المتصوفة بمقام (المعرفة)

ويظل السالك بعد ذلك مواظباً على اذكاره وأوراده التي يتلقاها من شيخه آناً بعد آن بحسب ما يبدو للشيخ من استحقاق المريد لزيادة الترقي الروحي فيشغل بها اوقاته مقرناً ذلك بالعزلة والخلوة والاقلال ما امكن من الطعام والشراب والكلام والنوم الاَّ ما تستوجبه الضرورة والطبيعة مع ملازمة التهجد وقيام الليل والناس نيام فعند ذلك تتملكه حالة شريفة علوية روحية ينتقل بها الى المقام الذي يسمى مقام (الوجد والهيام) وهو اسمى من مقام العشق اذ يستولي على النفس آثاره من جميع نواحيها

فاذا بلغ الفقير هذا المقام السنيَّ تواردت على قلبه النفحات الربانية والبركات الالهية تواردا تزداد به معرفته الباطنية بصفات الذات العليَّة ما يصل به الى الحقيقة المجردة التي كان ينشدها عندما جاء الى الشيخ وهو اذ ذاك مريد يطلب الوصول اليها . وتسمى هذه المنزلة عند أرباب الطريق بمقام (الحقيقة)

على ان وصول السالك الى هذا المقام لا ينتهي عنده سلوك الطريق بل انهُ يظل بعده يرتقي بالروح الى منازل ثلاث أخرى تعرف بمنزلة (الفناء فالفناء فالبقاء) . أما الفناء فهناك فناء العبد عن حظوظه وعن نفسه في الله بل عن اختياره أيضاً ويكون كما قال سيدي ابو الحسن الشاذلي لبعض مريديه « اذا شئت أن تختار فاختر ان لا تختار وفرَّ من ذلك المختار ومن فرارك هذا ومن كل شيء الى الله تعالى »

ففي هذا المقام تتجلى عظمة الخالق على قلب السالك فلا يرى الاَّ الله حتى نفسه لا يرى لها أثراً ولا يجد في الوجود من الكائنات الا واجب الوجود وحده وتمحي آثار جميع الموجودات في وجوده تعالى وتتجلى في فؤاد الفقير معنى قوله عزَّ وجل في القرآن مخاطباً عباده المتقين فأنيبوا الى ربكم وأسلموا لهُ . ويتضح لهُ بعد الافاقة من سكر الوصول الى هذه الحال الرهيبة معنى قول الحلاج ما في الجبة الاَّ الله اي ان نفسه تلاشت فلم يعد لوجوده عنده من أثر

وقد وصف الامام جلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية في أبيات لهُ بالفارسية حالة الفناء هذه أبدع وصف ويروح لي ان هذه الابيات لم تترجم الى العربية حتى الآن وهذا مضمون ما قالهُ في ذلك :

«حينما يستولي روح من الجن على لب الانسيّ من الناس تضعف صفات الانس فيه الى حد التلاشي ويصبح كل ما يصدر منهُ من قول آتياً من وحي ذلك الروح الجني وسلطانه لا من عقل هذا الانسي وتفكيره اذ تتلاشى ذاتيته وقتاً ما يعود في خلاله كأنهُ الجنية ذاتها

« وفي تلك الحالة العجيبة تصبح العربية عند التركي لغته ان كانت العربية لغة ذلك الجني المستولي عليه ينطق بها دون ان يعرف منها شيئاً وهذا يحدث منهُ في غير إلمام يحس او وحي يتلقاه ومتى عاد الانسيّ الى نفسه وأفاق ، لم يذكر لفظاً واحداً مما قالهُ وهو تحت ذلك السلطان فاذا صحّ هذا عن الجنية وسلطان استيلائها على لب انسان ، أيكون خالق الانسان والجان أقل شأناً وأضعف سلطاناً من الانس والجان ؟ حاشا ان يكون ذلك شأن الاله الواحد القهار »

وفي أبيات لهُ أخرى يقول سيدي جلال الدين بالفارسية ما ترجمتهُ بالعربية :

« لو تكلم امامكم رجل سكران من اثر ما شربه من روح الخمر بكلام غريب تلمّ انها الخمر التي تكلم افيكون لروح الخمر هذا الاثر ولا يكون لروح الله مثله اذا استولى على قلب انسان فيجعله ينطق بكلام ليس بكلامه وعبارات ليست هي عباراته

الاّ ان القرآن وان جاءنا من بين شفتي النبي محمد فقد كفر من قال انهُ ليس كلام الله

الفناء عند الصوفي

ومقارنته بالفناء لدى البوذيين

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا ان من المستشرقين من الغربيين من ذهب الى حد تشبيه حالة الفناء عند المتصوفين المسلمين بحالة تسمى نيرفانا Nirvana عند البوذيين الوثنيين وهي الحالة التي يتوهم هؤلاء انها نتيجة تعذيبهم انفسهم حتى تتلاشى وتمحق عنهم فلا تعود النفس الى صاحبها بدأ اذ يزعمون انهُ ينقلب فيصير بوذا بذاته اي إلهاً آخر تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً . ولست بصدد اظهار ما في هذه المزاعم الوثنية الوهمية من الضلال والمخالفة للتعاليم الدينية الحقة . وانما اقول ان فناء السالك المتصوف غير هذا اذ معناه قتاؤه عن نفسه وصفاته الحيوانية الارضية حبًّا في ذات الله بالتزام التهذيب لا التعذيب ومتى تمّ له هذا الفناء اشرف به على طور لا يشهد معهُ في الوجود الاّ الله حتى ولا نفسه التي بين جنبيه فلا يرى وجوداً إلاّ لواجب الوجود وحده وأما وجود سواهُ أيًّا ما كان فهو وجود مجازي غير ذاتي لنبوله العدم والفناء . اما الوجود الحقيقي الذاتي فهو للذات الالهية الابدية الدائمة البقاء وحدها

وتلك المشاهدة لا تحصل بحاسة البصر بل تحصل بعين البصيرة اي بنور ينبعث في القلب انبعاثاً إلهيًّا اذ تكون الحواس الظاهرة كلها في غيب عن نفسها كما يحدث لمن يدخل على ملك ذي شوكة وسلطان فتملكه الهيبة والجلال الى حد انهُ لا يرى شيئاً قط مما في بيت الملك من رياش وغير رياش ولا يرى أحداً ممن يكون جليساً للملك حين دخوله عليهِ حتى ولا يعلم من أمر نفسه شيئاً حين دخوله على حضرة الملك وذلك لاستيلاء الذهول كله عليه

فهذا الامر مشاهد في امور الخلق فكيف بنا وحديثنا يدور حول الفناء في الخالق . ثم ان السالك بوصوله الى مقام الفناء الذي وصفنا طرفاً منهُ يتحقق له قول النبي عليه السلام لاصحابه موتوا قبل ان تموتوا اي موتوا عن رؤية وجودكم واختياركم وإعتمادكم على حولكم وقوتكم لتعلموا ان الوجود والاختيار هما في الحقيقة وقف على الله الواحد المختار وانكم وان زرعتم الزرع بأيديكم فان الزارع هو الله ولكنكم أسباب وقد يخلق الله بسبب ويخلق ايضاً بلا سبب فهو مسبب الاسباب ورب الارباب وهذا ما ترونهُ كشفاً وعياناً بعد انقضاء أجلكم في الدنيا ويكون الحال كما وصفهُ الله في القرآن بقوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)

وبعد ان يفيق الطالب من سكر الفناء ينتقل نوًّا الى مقام يسمى مقام البقاء ويعرف عند الصوفية أيضاً بمقام (الوصول) او المشاهدة والمكاشفة ومن ذلك قولهم في مواضع كثيرة من كتبهم فلان الواصل الى الله وهذا المقام حالة وراء العقل المجرَّد يعجز القلم عن وصفها وتدق الافهام عن تصور كنهها اذ هي بمنزل عن نطاق المدارك العقلية لانها حالة ذوقية روحية لا تعلق للعقول بها الاَّ بأن تقر بجواز حصولها وعدم استحالتها ومثلها بالنسبة الى المدركات العقلية كمثل ما يؤكل وما يشرب بالنسبة الى حاسة البصر فكما ان هذه الحاسة لا تتعلق الاَّ بالمرئيات دون الاذواق اذ ليس ادراك الاذواق من شأنها ولا من واجباتها بل هو مقصور على حاسة الذوق وحدها فكذلك المواجيد الروحية والاذواق الباطنية القلبية لا تدرك بالعقول والافهام . وانما تدرك بنور البصيرة وطهارة والالباب

وقد تلبث حالة الفناء التي أسلفنا ذكرها مقدار لحظة واحدة او قد تطول اكثر من لحظة وكذلك حالة البقاء او المكاشفة قد تدوم ساعة او اكثر من ساعة حيث يعود السالك بعدها برضوان الله وفضله الى نفسه ولكن ليس الى نفسه الاولى الامارة بالسوء التي كان يجاهد في تهذيبها وصقلها بمهذبات الشرع ويحاول قهرها وتحاول قهره ويسعى في ضبطها ضمن حدود الشريعة وهي تأبى الاَّ الغلبة عليهِ والخلاص من قهره . بل يعود الى النفس الراضية المرضية المهذبة الكاملة المطمئنة بالايمان الراسخة لاحكام الشرع والدين . يعود الآن الى مقام البقاء بالله اي مقام العزة الانسانية المشروحة الصدر المستنيرة بانوار التقوى والصلاح بعيداً عن

الشوائب الشهوانية والحظوظ النفسية والصفات الدنيئة وأخصها العجب والزهو والكبر والرياء والنفاق والحسد والتطلع الى ما في ايدي الناس وقلة الرضى بما قسمهُ الله من الرزق

يعود ليشهد فيهِ الخلق مثالاً حيًّا على صدق روح الاسلام وتكفله بان يبلغ النفس البشرية اقصى ما تتوق اليهِ من الكمالات والرقي الروحي اذ يصير قلبه مليئاً بالصدق والمروءة والنخوة والطهارة والصفاء والعطف والرأفة والحنوّ على عباد الله بل على الخلائق جميعاً حتى الطير والحيوان الاعجم يعطف عليهِ ويرأف بهِ حتى لقد قال في وصف هذه الحال مولانا العارف بالله سيدي محي الدين العربي ابياتاً منها قوله قدس الله سره : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لنيران وكعبة قاصد وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبهُ فالحب ديني وايماني

وقد أراد سيدي جلال الدين الرومي تصوير حالة الوصول الى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء فكتب في كتابه المسنوي شعراً بالفارسية هذا معناه : —

« توهم المحب انه قد فني في محبوبه فلما اهتدى الى بيته بعد طول السير والجهاد وقف بالباب فدقّ عليه يطلب الاذن في الدخول فسمع من الداخل صوتاً ينادي : من بالباب ؟ فقال المحب انا بالباب فقال الصوت داخل البيت : كلاّ كلاّ . ان هذا البيت لا يسعني وبعد احداً سواي . وظل الباب مغلقاً كما كان فأطرق المحب مليًّا فأدرك ان ما حجبهُ دون الاذن له بالدخول الاّ شعوره بوجود نفسه معه فعاد ادراجه وعاود جهاده ثم رجع بعد عام يقرع الباب فعاد الصوت يسأل من بالباب ؟ فقال انت انت الذي هنا وأنت انت الذي هناك وأنت وحدك ملء الوجود ولا موجود سواك وهنا فتح الباب على مصراعيه فدلف منهُ المحب ليحظى بوصال الحبيب »

وبهذه الصورة الشعرية الطريفة أمكن للعارف جلال الدين ان يصوّر لنا كيف ان سلوك سبيل التصوف الحق ينيل النفس المتعطشة اقصى ما تصبو اليهِ من الرقي الروحي

***

هذا ايها السادة ما وسع المقام ذكره من الالمام ببعض اطراف التصوف في الاسلام اجمالاً وعسى ان تتاح لي فرصة اخرى لازيد الموضوع جلاء وتفصيلاً . واني شاكر لكم حسن استماعكم لي زمناً طويلاً